كلية العلوم الإسلامية

قسم العقيدة والدعوة والفكر **المحاضرة الثانية**

مدرس المادة: أ.م.د. أيسر فائق جهاد

المرحلة : الأولى الكورس لأول

المادة: التصوف والأخلاق

عنوان المحاضرة (تعريف التصوف ونشأة التسمية)

المصادر: حقائق عن التصوف : الشيخ عبد القادر عيسى

الرسالة القشيرية: الإمام أبو القاسم القشيري ومصادر أخرى في التصوف والسلوك

أولاً: المعنى الاصطلاحي للفظ التصوف: وإذا انتقلنا من بيان المعنى اللغوي للتصوف واشتقاقاته إلى المعنى الاصطلاحي نجد أن تعريفات التصوف كثيرة جداً وقد ذكر السهروردي أن له أكثر من ألف تعريف ، بل ذكر آخرون أنها تبلغ نحو الألفين تعريف، قال الشيخ أحمد زروق في قواعده: وقد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها صدق التوجه إلى الله وإنما هي وجوه فيه وترجع هذه الكثرة إلى أن كل واحد ممن عرّفوا التصوف كان يعبر عن ذوقه ووجده وحاله ، لهذا اختلفت العبارات ، لأن الطريق إلى الله تعالى بعدد النجوم وبعدد أنفس السالكين ، ويمكن تصنيف هذه التعريفات إلى أنواع حسب الطابع الغالب عليها وسنذكر بعضاً منها:

أ- بعضها يركز على الجانب العملي الذي يهتم بمجاهدة النفس ومقاومة شهواتها ، وإصلاح القلوب وذلك كالذكر والمراقبة ومحاسبة النفس والزهد في الدنيا ، ومن نماذج هذه التعريفات:

قال ابن عجيبة (رحمه الله): التصوف : ((هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل وأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة)).

وقال الشبلي (رحمه الله): ((التصوف : ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك))

وقال أبو الحسن الشاذلي (رحمه الله): ((التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية))

وقال صاحب كشف الظنون الحاجي خليفة: التصوف: علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم إلى أن قال:

علم التصوف علم ليس يعرفه	إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده	وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى : ((التصوف علم قصد به صلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه))

وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (رحمه الله): (التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر الباطن لنيل السعادة الأبدية).

ب- وبعضها يتجه إلى ملاحظة الجانب الأخلاقي الذي هو أهم أركان التصوف ومن هذه التعريفات:

قول الإمام الجنيد(ت٢٥٧هـ) رحمه الله: ((التصوف استعمال كل خلق سني وترك كل خلق دني))

وقولهم: ((التصوف كله أخلاق فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف))

ج- وبعضها يركز على جانب الصفاء وأشار إلى هذا المعنى الإمام الجنيد رحمه الله بقوله: ((التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن اصطفي من كل ما سوى الله فهو الصوفي)).

ونكتفي بهذا القدر من التعريفات لأننا لو حاولنا أن نتتبع أقوال الصوفية التي تتعلق بتعريف التصوف لطال بنا الحديث لذلك نكتفي بما ذكرناه من هذه النماذج التي تبين أن التصوف له معان متعددة تختلف باختلاف التجربة الروحية لكل صوفي.

ثانياً: نشأة التسمية:

أن المتتبع لهذه النحلة السامية يجد أنها مرت بمراحل مختلفة قبل أن تتسمى بهذا الاسم المعروف (الصوفية)، فكانت أحوالها تظهر في كل مرحلة باسم معين وهكذا إلى أن استقرت باسم (التصوف) وآية ذلك أن الشيخ الأستاذ أبا القاسم القشيري يقول في رسالته الشهيرة(الرسالة القشيرية): ((اعلموا أن المسلمين بعد رسول اللهﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علْمٍ سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة)) .

ويبدو أن اسم التصوف كان موجوداً قبل المائتين لكنه ذاع وانتشر بعد المائتين وفي ذلك يقول ابن تيمية في كتابه (الصوفية والفقراء) : وأول ما ظهرت الصوفية من البصرة.

وأول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد وهو من أصحاب الحسن البصري (رحمهم الله) وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سار الأمصار ولهذا كان يقال، فقه كوفي وعبادة بصرية، وبه يقول العلامة محمد كرد علي (رحمه الله) : وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي الكوفي المتوفى سنة (١٥٠هـ)

وقال ابن خلدون بعد كلام طويل عن علم التصوف: ... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية .

ولسنا نهتم كثيراً بمصطلح الكلمة واشتقاقها بقدر اهتمامنا بمضمونها.فإن شئت سم (التصوف) بالتزكية ونهي النفس عن الهوى كما قال تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ ، أو سمه الإحسان أو علم التربية والسلوك ولكن لا مفر لنا من إطلاق اسم التصوف عليه، لأنه الاصطلاح الذي تعاهده أهل التاريخ وشاع عندهم أكثر من غيره.

والتصوف ليس أمراً مستحدثاً جديداً؛ ولكنه مأخوذ من سيرة الرسولﷺ وحياة أصحابه الكرام، كما أنه ليس مستقى من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماءً مبتكرة، فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية فقالوا :هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه يرجع في نشأته إلى هذه الأصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة أخرى، ولكن الإنسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية، ولا يقع بأحابيلهم الماكرة، ويتبين الأمور، ويتثبت في البحث عن الحقيقة، فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب .